

## الدراسات اللغوية الحديثة في ضوء علم الاجتماع اللغوي (اللغة الأمازيغية أنموذجاً).

Les études linguistiques contemporaines à la lumière de la sociolinguistique (les dialectes amazigh comme model).

د، سمير براهيم

جامعة المسيلة

samir\_dialectologie@yahoo.fr

الهاتف: 067250491

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال:
2019-02-28	2 019-01-25	2019-01-24

## الملخص:

لم تعرف الدراسات اللسانية المتعاقبة التي اتخذت من الأمازيغية وتنوعاتها اللهجية موضوعاً منذ القرن التاسع عشر أهمية تذكر للبعد الاجتماعي لهذه اللغة المستعملة في شمال إفريقيا منذ حقب تاريخية موعلة في القدم، بل ركزت عوض ذلك على جوانب نظرية لا تخرج عن نطاق التجريد، ولا يجرى منها تحقيق هدف يعود بفائدة على اللغة والمجتمع، خاصة وأن اللغة تتجاوز كونها مجرد أداة اتصال بين أفرادها. ويناقش هذا المقال الإمكانيات الهائلة التي تتيحها الدراسات اللغوية الحديثة في ضوء علم الاجتماع اللغوي المعروف أيضاً بالسوسيولسانيات أو علم اللغة الاجتماعي لحل المشكلات التي لا تزال تتخبط فيها الأمازيغية على غرار تهيئة لغة مشتركة واحدة تسمو على التنوعات اللهجية، اختيار الخط المناسب، إدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية... الخ.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع اللغوي – اللهجات - الأمازيغية- التهيئة.

## Résumé :

Les différentes études linguistiques amazighes qui se sont succédées depuis le XIX siècle ne se sont guère soucies de la dimension sociale de cette langue. Elles se sont focalisées par contre sur des aspects théoriques qui ne dépassaient rarement le stade de l'abstraction, en plus d'être dénuées de pragmatisme. Cet article traite des potentialités énormes qu'offre la sociolinguistique pour résoudre les problématiques confrontés par la langue amazigh à l'instar de la : standardisation des variantes dialectales, de son introduction dans le système éducatif, le choix de la graphie, le lexique...etc. Les mots clés : Sociolinguistique- dialectes- Tamazight- aménagement

## Abstract

The successive linguistics studies which took Tamazight language and its variations as a subject since the 19th century did not take in consideration the importance of its social dimension of this language used in North Africa since late historical epochs, but instead focused on aspects of the theory that not depart from the scope of the ABSTRACTION, and no one expect achieving some things good for the community, especially because the language is beyond being just a tool of communication between its members. This article discusses the enormous potential offered by modern language studies on the light of the sociolinguistics to solve problems that still beset Tamazight modeled on the creation of a common language is one that transcends the diversities, choose the appropriate graph, and inclusion of Amazigh in the educational system, etc.

Its widely agreed that the language of social humanitarian phenomenon par excellence and is considered one of the most serious social phenomena, the position of the users are not different from the attitude to religion, customs and traditions and the way of living in the society in which they live.

It is imperative to study the human being to study their language, as it is not possible to identify this object outside the field of language, as all what is happening in this world, whether we like it or not linked to language. They have arisen with the work and developed with him, without it we cannot improve our work, or our arts, we will have a civilization. Language is one of the most important means of intellectual and scientific, and social activity.

The linguistic community remains the oldest and most authentic forms of human societies, language is the spirit of true community agents wash their culture first and foremost intellectual expression of civilization, the linguistic element is one of the most important factors of individual and collective sense of belonging and loyalty to certain specific community organizer of civilization.

It is no exaggeration to say that the language plays a vital role in every society, as a means of expression and communication. It is a power through the relations established by the laws, and a means to unify the nation intellectually and politically, the symbol of individual identity, social and cultural rights and guidelines, the code to save the civilization and delivery of knowledge.

The reliance on sociolinguistics in the linguistic field, especially in the Amazigh language become is inevitable today, so that it is impossible to ignore what this modern science has achieved in the western societies in a short period not exceeding 60 years in the areas of Pure and Applied. Meanwhile; "traditional" Linguistics was not interested or unable to provide solutions to the problems of linguistic minorities, as a result it could degenerate into social, political and cultural problems if it has received insufficient attention, especially if exploited by the parties to the aims to sow discord among the members of the homeland. Which negatively affect the stability of society and

deepen the factors of conflict between members of the society, but may turn to the impossibility of living together.

الثابت والمتفق عليه أن اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية بامتياز وهي تعتبر من أخطر الظواهر الاجتماعية على الإطلاق، فموقف مستعملها منها لا يختلف عن موقفهم من الدين والعادات والتقاليد وطريقة المعيشة في المجتمع الذي يعيشون فيه.

يتحتم على من يريد دراسة الإنسان أن يعكف على درس لغته، إذ لا يمكن التعرف على هذا الكائن خارج الحقل اللغوي، إذ كل ما يحدث في هذا العالم، شئنا أم أبينا مرتبط باللغة. فقد نشأت مع نشوء العمل وتطورت معه، ومن دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدم علمنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا ولن تكون لنا حضارة، فاللغة إحدى أهم وسائل نشاطنا العلمي والفكري، والاجتماعي.<sup>1</sup> ويظل المجتمع اللغوي أقدم أشكال المجتمعات الإنسانية وأكثرها أصالة وعراقة، فاللغة هي روح المجتمع الحقيقية ووعاء ثقافته وأداته الأولى والرئيسية للتعبير الفكري عن حضارته، فالعامل اللغوي يعتبر من أهم عوامل الشعور الفردي والجماعي بالانتماء والولاء لحضارة معينة ولمجتمع منظم محدد.<sup>2</sup>

وليس من قبيل المبالغة القول بأن اللغة تلعب دورا حيويا في كل مجتمع، كونها وسيلة للتعبير والتواصل والوجود، وإنها السلطة من خلال العلاقات التي تحددها القوانين، وأداة توحيد الأمة فكريا وسياسيا، ورمز للهوية الفردية والاجتماعية والثقافية والتوجيهية، ومدونة لحفظ الحضارة وإيصال المعرفة.<sup>3</sup>

### 1- اللغة والمجتمع:

"لقد كانت اللغة وما زالت وستظل إحدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني والانضواء في جماعات، وتطور القدرة على التفكير، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتحقيق درجة التقدم التي علمها الإنسان اليوم، لأن الكلام كما يقول فنديرس جوزيف في كتابه *langage oral et langage par le geste* يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلية، ويسمح لنا بالخروج عنه، إنه مبدع، وصانع الحياة الاجتماعية".<sup>4</sup>

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وشؤونها الاجتماعية العامة ... وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صدها في أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب. فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما، وفي ضوء خصائصها في كل مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم.

فكلما اتسعت حضارة الأمة، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، ورفق تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها، وتعددت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقْتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ... وهلم جرا. واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول. فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيق التي امتازت به مدينتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس، كان لهذين الانتقالين أجل أثر في نهضة لغتهم ورفق أساليبهم واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم.<sup>5</sup>

## 2- أوجه الشبه بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية:

لا شك أن العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أن وجدت اللغة ووجدت الحياة الاجتماعية، فجوهر الإنسان إنما يكمن في لغته وحساسيته وحياته الاجتماعية. والنظر في هذه العلاقات قديم لا ريب، غير أنه لم يستوكمًا، ونوعًا وتنظيرًا، ومنهجًا، وروادًا إلا في عصرنا الحاضر في ظل علم جديد من علوم اللغة أطلق عليه علم اللغة الاجتماعي<sup>6</sup>، كما يسمى علم الاجتماع اللغوي، السوسيولسانيات، اللسانيات الاجتماعية... الخ.

تمتاز الظواهر الاجتماعية - وهي التي يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La sociologie-بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية:

1- أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية، وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض والتي تربطهم بغيرهم.  
2- أنها ليست من صنع الأفراد، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات، ومقتضيات العمران. وهذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من "نتاج العقل الجمعي".

3- أن خروج الفرد على أي نظام منها يلقي من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادي أو أدبي، أو تلغي عمله وتعتبره كأنه لم يكن، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضربا من ضروب العبث العقيم، أو تسلط عليه أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات<sup>7</sup>.

وهذه الخواص الثلاث تتوافر في اللغة على أكمل ما يكون:

فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في إتباعه، ويتخذونه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض.

واللغة ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل الأفكار. وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تلقيا بطريق

التعلم والمحاكاة، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصب أصواته في قوالبه، ويحتديه في تفاهمه وتعبيره.

واللغة من الأمور التي يرى كل فرد نفسه مضطرا إلى الخضوع لما ترسمه. وكل خروج على نظامها، ولو كان عن خطأ أو جهل، يلقي من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء. فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما، أو استخدمها في غير مدلولها، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي ترسمها لغته، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه، ورموه بالغفلة والجهل، وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه. وليس هذا مقصورا على الخطأ الذي يسع الناطق إصلاحه، بل إن الخطأ الذي لا يمكنه إصلاحه، لنشأته عن خلل طبيعي في أعضاء النطق، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب في تعبيره وتفاهمه.<sup>8</sup>

من طريف ما يروى في هذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصابين بالثلثة كانوا يرهقون أنفسهم عسرا من أمرهم في إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغتهم، فكانوا يحرصون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذي لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح. يروى ذلك عن واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال الذي كان لا يحسن نطق الراء، فكان يتجنبه في مهارة وحذق في جميع كلماته التي تشتمل عليه.<sup>9</sup>

### 3- وضعية الأمازيغية في الجزائر في ظل التعدد اللغوي:

طرحت المشكلة اللغوية في عدد من البلدان التي نالت استقلالها بعد كفاح مرير للانعقاد من نير الاستعمار. فاللغة بالإضافة إلى كونها أداة اتصال بين أفراد الشعب الواحد، تعدّ مقوما أساسيا في تحديد الهوية الجماعية للمجموعة التي تتحدث بها. إذ أن اختيار لغات معينة لتسمو لمرتبة لغات وطنية أو رسمية يكتسي أهمية كبيرة، لا بدّ أن ينعكس صداه على المستويات السياسية، الاجتماعية والثقافية.

في أفريقيا، وكنتيجة لسياسة التقسيم ورسم الحدود الذي تعرضت له هذه القارة إبان القرن التاسع عشر من قبل القوى الأوروبية العظمى في ذلك الوقت، أضحى العديد من دول هذه الأخيرة بعد استقلالها متسما بتعدده اللغوي، سواء أكان ذلك داخل أو خارج الحدود الجغرافية الجديدة لهذه الدول.<sup>10</sup>

وتوضح الخريطة التعبيرية في الجزائر بأن درجة استعمال اللغات في الجزائر ليس متماثلا، فالدرجات الجزائرية تهيمن على السوق الشفوية وتحقق توأصلا بين المجموعات اللغوية المختلفة فالعربية الفصحى واللغة الفرنسية لا تستعملهما إلا أقلية من المثقفين، والأمازيغية أمازيغيات، وهي شتات لها مناطقها النافذة وتأدياتها المختلفة التي لا تتفاهم مع بعضها البعض.<sup>11</sup>

ومن هذا التقسيم يمكن إجمال الوضع اللغوي الجزائري كما يلي:

1- اللغات ذات الانتشار الواسع: العاميات أو الدارجات العربية، وهي متنوعة ولكنها تحتكم إلى قواسم مشتركة.

2- اللغات المحلية: الأمازيغية بمختلف تآدياتها ولهجاتها.

3- اللغات الكلاسيكية: العربية الفصيحة واللغة الفرنسية.<sup>12</sup>

ومن بين كل اللغات السالفة الذكر، أثارت الأمازيغية منذ الحقبة الاستعمارية ولا تزال، جدلا واسعا بين الباحثين سواء تعلق الأمر بماهيتها، أصلها، علاقتها باللغة العربية ولهجاتها المختلفة، مجالات استعمالها، أو حقها في الاعتراف الرسمي. وكثيرا ما خرج هذا الجدل من إطاره العلمي المحض، واتخذ مناحي سياسية وإيديولوجية، أثرت سلبا على معالجة المشكلة وزادتها تعقيدا بحيث أضحت تشكل خطرا على السلم الأهلي وورقة في يد كل من يريد العبث باستقرار المجتمع ومقوماته.

تتجلى اللغة الأمازيغية حاليا في شكل عدد كبير من اللهجات المحلية، يمكن تجميعها ضمن لهجات جهوية على غرار القبائلية، الشلحية، الميزابية والتارقية... الخ. وهي موزعة عبر منطقة جغرافية شاسعة، تمتد من واحة سيوة على الحدود المصرية- الليبية شرقا، حتى المحيط الأطلسي غربا، ومن سواحل البحر المتوسط شمالا إلى غاية بوركينافاسو جنوبا، لكنها في غالب الأحيان متباعدة بعضها عن بعض. ونظرا لهذا التباعد بينها فإن التبادل اللغوي بين مختلف الجماعات الناطقة بهذه اللهجات ضعيف.

وفي السياق ذاته، يشير الباحث كمال نايت زراد بأن " اللغة الأمازيغية مستعملة منذ آلاف السنين عبر كافة أرجاء شمال أفريقيا ... من المرجح أن الأمر كان يتعلق منذ ذلك الحين بلهجات محلية متشابهة بعضها ببعض بشكل كبير. لكن أوجه التباين تعمقت فيما بينها مع مرور الزمن. ويكمن السبب الرئيسي لهذا التباين في شفويتها؛ نظرا لأن البربر لم يستعملوا قط لغتهم كناقل ثقافي أو كلغة عمل، إذ فرضت عليهم لغة الفاتحين بشكل دائم. لم تعرف أي من لهجاتهم المحلية السابقة الاعتراف الرسمي وتطور كل منها بشكل مستقل عن الأخرى، مما تولّد عنه بالتالي تشتت أكبر بينها.<sup>13</sup>

من الثابت أن اللغة الأمازيغية بفروعها ظلت على الهامش لقرون طويلة. وإذا كانت الظروف التاريخية لم تساعد على احتل مكانتها ضمن اللغات المكتوبة بحوض البحر الأبيض المتوسط، فإن وضعيتها هذه ساهمت في تبرير المواقف اللاحقة من إمكانيات معيرتها، وإدراجها داخل المؤسسات التعليمية والإدارية والإعلامية. فقد ظل مناوئو مأسستها يبررون مواقفهم هذه ببدايتها وبتعدد استعمالها الشفهية وعدم كتابيتها وغياب إنتاجها لتراث مكتوب، وعدم قدرتها على إنتاج المفاهيم المجردة، وعدم جدارتها كي تلعب دور اللغة الوسيط.<sup>14</sup>

وذلك رغم أن الأمازيغية "لا تشكو قصورا كأداة تواصل قائمة بذاتها، تتوفر بنياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية على خصائص اللغات الحية، فهي تتفاعل مع غيرها من اللغات

المتساكنة في نفس المحيط الثقافي، وإنما ملكة لسانية متميزة. ومصطلح اللغة الأمازيغية افتراضي، لغياب اللغة الجامعة.<sup>15</sup>

وبما اللغة الأمازيغية - كما ذكرنا آنفا- غير موجودة حالياً، إلا على شكل لهجات محلية، وهذا حالها بدون شك منذ قرون عديدة. تنوعها يفرض على علماء اللسان إجراء العديد من الأبحاث اللسانية لاكتشاف حقيقة اللغة الأمازيغية كما تطورت محلياً عبر مختلف العصور. إن هذه الأبحاث بعيدة عن الانتهاء، كما أنها ليست متعمقة بالقدر المطلوب.<sup>16</sup>

خاصة وأن هذه اللغة وإن "كانت قد استطاعت أن تبقى محفوظة وعلى هامش التاريخ خلال آلاف السنين، فإن عصر الإعلام الآلي ووسائل الإعلام الإلكترونية أخلط المعادلة. حيث أن العولمة رافقتها التكنولوجية التي لا تستثني أي بقعة من الأرض، مع العلم أن هذه التكنولوجيا تحمل معها حتما دعامة لغوية وثقافية تشكل تهديداً لعشرات اللغات التي تعتبر تراثاً للإنسانية".<sup>17</sup>

#### 4- قصور النظرية اللسانية التقليدية في النهوض بالأمازيغية:

لقد نشأت اللسانيات الحديثة، عندما سعى فرديناند دي سوسير إلى وضع نموذج مجرد هو اللسان، انطلاقاً من أفعال الكلام *des actes de parole*، وقد شكلت دروسه التي تولى طلبته جمعها ونشرها (سنة 1916) بعد وفاته نقطة انطلاق البنيوية في اللسانيات. ورغم بعض الفقرات التي نعثر فيها على تصريحه بأن اللسان " هو الجزء الاجتماعي من اللغة (ص 31) "، أو " اللسان هو مؤسسة اجتماعية (ص 33) " فإن كتابه هذا يلج بخاصة على كون " اللسان نظام لا يمثل إلا لتنظيمه الخاص (ص 314) " أو كما تصرح بذلك الجملة الأخيرة من النص: إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ولذاته".<sup>18</sup>

تثير الفقرات التي يصرح فيها سوسير بأن اللسان " هو الجزء الاجتماعي من اللغة و"اللسان مؤسسة اجتماعية " الاستغراب لما تنطوي عليه من غموض نظري. فكون اللسان مؤسسة اجتماعية هو عنده مجرد مبدأ عام، أو نوع من الدعوة سيتلقاها بعده العديد من اللسانيين البنيويين دون أن يتعاطوا الوسائل الاستكشافية التي تمكّنهم من الاضطلاع بهذا التصريح: نسلم بالطابع الاجتماعي للسان ثم ننتقل إلى شيء آخر، إلى لسانيات صورية، إلى اللسان " في ذاته ولذاته " .<sup>19</sup>

وفي المقابل، تطور علم اللغة الاجتماعي كحركة مضادة للبنيوية والنحو التوليدي: فقد سعى إلى تجاوز تقييدها لمجال موضوع علم اللغة في النظام اللغوي من خلال مفهوم أوسع لعلم اللغة، فوجه النظر إلى المحددات الاجتماعية للغة، وإلى الأسس الاجتماعية للغة وتأثيرها في المجتمع، باختصار: إلى العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ... فإذا كان هدف علم اللغة البنيوي والتوليدي وصف البنية اللغوية الداخلية في إطار شرط جماعة لغوية متجانسة (مثالية): تتزحج في علم اللغة الاجتماعي على العكس من ذلك التبعية المتبادلة لأبنية لغوية واجتماعية إلى القلب، وتدرس

الاختلافات (البدائل) اللغوية في تبعيتها للشروط التاريخية والاجتماعية أيضا في التواصل اللغوي، وصار الآن الاختلاف اللغوي موضوع علم اللغة الاجتماعي.<sup>20</sup>

ولعل ما يبرر ذلك، أن "فكرة لغة مطابقة لنفسها من كل الجوانب وعلى مستوى كل تراها ومستعملها تعتبر وهم، ونتاج تاريخ سوسيو-ثقافي معين، ولا تطابق أبدا الواقع الموضوعي للاستعمالات اللغوية الملاحظة. فاللغات تمتلك حرية تغير كبيرة، وهذا لا يمنعها من أن تعمل بشكل جيد وفي كل مكان.<sup>21</sup>

لا شك أن كثيرا من الدول سعت، سواء بشكل علني أو بشكل خفي، لتحقيق سياسة لغوية رامية لتأسيس مبدأ أحادية لغتها، لكن وفي حقيقة الأمر تجد من النادر جدا ألا يكون هناك مزجا، وبأشكال معقدة عديدة، بين الحدود اللغوية والحدود الجغرافية لهذه الدول. فغالبية هذه الأخيرة لها أكثر من لغة متداولة بين نسبة معتبرة من سكانها، وأن لأغلبية اللغات المعروفة، وفي كثير من دولة، عددا هائلا من مستخدميها.<sup>22</sup>

لكن " لم يكن التنوع في اللغة أو اللهجة وكذا التنوع عبر اللغات مركز الاهتمام في النظريات اللسانية المهيمنة لهذا القرن-نظرية سوسور (Saussure)، المدرسة الأمريكية، مدرسة براغ، البنيوية، ونظرية شومسكي. ومن نتائج ذلك أن التنظير اللساني ارتكز بشكل كبير على الأشكال المعيرة (Standardized) للغات أكثر من الأشكال الأكثر تنوعا للحديث الطبيعي."<sup>23</sup>

يمكننا على مستوى عام أن نذكر دائما بأن التعددية والتغيرات هما معطيات ملازمة لكل مجموعة لغوية، وحتى لكل نظام لغوي. فاللسانيات الاجتماعية أعادت النظر كلية في النظرة البنيوية الكلاسيكية للنظام اللغوي المتجانس والمتكامل في كل أجزائه، حتى وإن تعلق الأمر باللغات "الكبيرة" ذات التقاليد القديمة في ميدان التنميط اللغوي.<sup>24</sup>

" ليس التعدد اللغوي - خلافا لما يمكن للبعض أن يتصوره - وضعا خاصا، وليس مقصورا على مناطق مخصوصة، ولا هو سمة من سمات العالم الثالث على وجه التحديد، أو من سمات البلدان النامية التي تتصورها بدهاء موزعة بين "لهجاتها"، و"لغاتها المحلية"، و"لغاتنا"، فالتعدد قدّر مشترك، وإن ظهرت بأشكال مختلفة في كل حال.<sup>25</sup>

فنادرا ما تجد مجموعات كلامية تتسم بأحادية قطبها اللغوي والأمر سيان بالنسبة للدول والأمم. فدولة مثل اليابان وبالرغم من أن محيطها اللغوي يتسم بتنافسه وانسجامه المعروف إلا أن ذلك لا ينفي وجود بعض الأقليات اللغوية التي قد تكون مهمشة كالآنيو والأقليات الكورية.<sup>26</sup>

وعلى صعيد آخر، تعتبر شفوية الأمازيغية عاملا آخر... " نرى من الضروري الإشارة إلى الوضعية الخاصة للباحث في اللغة الأمازيغية، حيث يجد نفسه يبحث في لغة ذات تقليد شفهي بصفة شبه حصرية. وفي المقابل نعلم أن علم اللسانيات الغربية (فضلا على باقي اللسانيات) يتمحور حول الكتابي، أي على خطاب جد مُعَيَّرٌ و"مُعَدّ"، حول لغة خضعت لسيورة تدريجية طويلة من

التطهير وذلك من خلال "القاعدة"، الكتابة والاستعمال خارج وضعية الكلام. وبالتالي أدى كل هذا إلى الميل لتهميش الظواهر المتعلقة بالاتصال المباشر وإلى وضع قوالب منتقاة ناتجة عن عملية فرز دامت لعدة قرون كنماذج قاعدية.<sup>27</sup>

الحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني وأوسعها انتشاراً. ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكثر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب وإيماءات وإشارات. ولهذا فإنه من السائغ للغوي Linguist - على عكس دارس فقه اللغة Philologist - أن يهتم أولاً باللغة المنطوقة، ثم ثانياً باللغة المكتوبة (باعتبارها - إلى حد كبير أو صغير- تمثيلاً صادقاً للغة المنطوقة)، وأخيراً - وبدرجة ضئيلة إن وجد اهتمام البتة - بنظم الاتصال الأخرى.<sup>28</sup>

#### 5- المقاربة السوسيولسانية للأمازيغية:

(أ) تعريف علم السوسيولسانيات أو علم اللغة الاجتماعي:

يشير ميشال زكريا إلى أن علم الاجتماع اللغوي " ميدان بحث ألسني موسع يتطرق لقضايا اللغة في إطار المجتمع ويدرس خصائص اللغات واللهجات، وخصائص استعمالها، وخصائص متكلمها داخل المجتمع اللغوي الواحد وفيما بين المجتمعات اللغوية المختلفة. وهذه الخصائص تتغير فيما بينها ويؤثر بعضها ببعض.<sup>29</sup>

وفي السياق ذاته، يعرف علم الاجتماع اللغوي على أنه المجال الذي يدرس العلاقة بين المجتمع واللغة، وبين الاستعمالات المتنوعة للغة والبنى الاجتماعية التي يعيش فيها مستعملوا هذه اللغة. ومن ثم، فإنه المجال الدراسي الذي يعترف بأن المجتمع يتكون من عدة أنماط وسلوكيات متداخلة فيما بينها ومنها ما هو لغوي.<sup>30</sup>

كما عرفه كمال بشر بقوله هو " دراسة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية وعنصراً أو مكوناً من مكونات الثقافة). وقال: (وليس المقصود بهذا العلم أنه تركيبية من علم اللغة وعلم الاجتماع أو انه مزج لهما أو تجميع لقضائيهما ومسائلهما، انه يعني باختصار شديد ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقتها بالمجتمع، انه ينتظم كل جوانب بنية اللغة وطرائق استعمالها التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية.<sup>31</sup>

إن القدر الأكبر من النمو في مجال علم اللغة الاجتماعي قد حدث في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، ولذلك يمكن أن ندرك أنه مازال مجالاً حديث العهد للبحث. وليس معنى ذلك أن دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع من ابتكار فترة الستينيات، فعلى عكس ذلك هناك تراث قديم العهد في دراسة اللهجات وفي الدراسات التي تتناول العلاقات بين معاني الكلمات والثقافات المختلفة، وكلاهما يقع في إطار تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعي. أما الجديد الذي استحدث في الستينيات، فهو الاهتمام الواسع والإدراك بأن علم اللغة الاجتماعي قادر على كشف الكثير مما كان غامضاً من طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع.<sup>32</sup>

(ب) علم السوسيولسانيات وتطبيقاته في حقل الدراسات الأمازيغية:

لا يرجع الاهتمام بهذا العلم إلى الأسباب العلمية الفاعلة فحسب، وإنما تنبع أهمية هذا العلم اليوم من اعتبارات عملية ذات نفع كبير على اللغات، وعلى الجماعات، وعلى الأمم. ومن هذه الاعتبار العملية نذكر سعي هذا العلم أن يمد التحليل اللغوي بعدا يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللسانيات الحديث، وذلك فيما يستدركه علم اللغة الاجتماعي على علم اللسان الحديث من مسائل كثيرة، منها على سبيل المثال، إغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة، ثم يتطلع هذا العلم من وراء ذلك إلى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد أوسع، ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها، ويتمثل هذا البعد الأوسع في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا للغة، وأبرزها التشكيل الاجتماعي، فإن المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم، ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه أرسى هو أم غير ذلك تؤثر في استعمالنا للغة تأثيرا معينا.<sup>33</sup>

ومن الاعتبار العملية نذكر أيضا، المشكلات اللغوية في المجتمعات النامية إذ تعيش أكثر هذه المجتمعات على الصعيد الخارجي داخل تعقيدات العصر الزاخر بالأحداث، والتحديات الاستعمارية، والصراعات الفكرية التي تحاول أن تطمس شخصية الشعوب الناهضة، وإيقاف مسيرتها نحو الرقي والاستقلال الفكري والسياسي، وذلك بواد لغاتها وصولا إلى مسح تراثها وتقاليدها، باعتبار أن اللغة محور حياة أصحابها اجتماعيا، وفكريا، ووجدانيا. أما على الصعيد الداخلي فإن هذه المجتمعات تعيش أحد مظهرين لغويين هما إما ازدواجية لغوية وإما ثنائية لغوية.<sup>34</sup> ولعل نظرة سريعة للمشاكل التي تتخبط فيها الأمازيغية، على غرار: المعجم (الاقتراض والتوليد)، اختيار الخط، إدراج الأمازيغية في المنظومة التربوية، التنوعات اللهجية وإشكالية معيرة اللغة المشتركة وكذا تفاعلها مع اللغات العربية والفرنسية... الخ، تفرض على الباحثين في مجال البحث اللغوي الأمازيغي الاعتماد أكثر على المقاربة السوسيولسانية بدل الاقتصار على الدراسات النظرية المجردة لعلم اللسانيات، التي -ورغم أهميتها - لن تساهم في إعطاء حلول عملية يستفيد منها المجتمع.

(ج) علم السوسيولسانيات ومنهجية البحث في الأمازيغية:

بداية، لا مفر من الاعتراف بأنه " من الصعب على المختص المغاربي في الدراسات الأمازيغية أن يكون " ملاحظ خارجي " فقط، لأنه يواجه بالضرورة واقع كون موضوع دراسته، التي هي جزء منه، مهدد... فاختيار التخصص في الدراسات الأمازيغية بالنسبة للمغاربي يعتبر دائما خيار ذو معنى، على الأقل تساؤل حول هويته " على حد تعبير الباحث سالم شاكور.<sup>35</sup>

لكن ذلك لا يجب أن يكون ذلك على حساب الموضوعية التي يجب أن يتحلى بها كل بحث علمي، خاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع حساس ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية قد يترتب

عنها انعكاسات خطيرة على الاستقرار والسلم الأهليين في أكثر من دولة بشمال إفريقيا ومنطقة الساحل الإفريقي.

فمن غير المنطقي، تحويل هذا البحث العلمي الذي يجب الاستفادة فيه من كل المساهمات العلمية الجادة مهما كان مصدرها، سواء من داخل الوطن أو خارجه، إلى مجال "محتكر" من طرف باحثين ينتمون إلى منطقة جغرافية واحدة أو يحملون خلفية سياسية معينة من طرف مجموعة منتمية إلى وبالتالي

يجب تجاوز النظرة الضيقة التي مفادها أن هذا الميدان يعتبر "قبل كل شيء ميدان الوعي الجماعي للناطقين بالأمازيغية، ولهذا السبب لا يليق للمختص في اللسانيات - خاصة الغير أمازيغي - أن يحل محل المعنيين أنفسهم. ستكون هناك لغة أمازيغية، بمعنى لغة ذات "معيار موضوع"، إذا قرر الأمازيغ ذلك وأعطوا لأنفسهم الوسائل.<sup>36</sup> على حد تعبير سالم شاكر، فذلك ينطوي على مخاطر جمة.

ينقسم علم اللغة الاجتماعي - مثله مثل الكثير من العلوم - إلى جزأين: الجزء "الإمبريقي" (الاجتهاري) والجزء النظري-والمقصود بالأول، الجزء الخاص بالخروج إلى الميدان لجمع المادة العلمية. وبالتالي الجزء الخاص بالخلو إلى هذه الحقائق المتجمعة والتفكير فيها وتمحيصها. وقد يكون المنهج النظري (المعروف بالمصطلح الغربي approach Armchair) "الجلوس والتفكير المترث" في دراسة علم اللغة الاجتماعي مفيدا إلى حد ما، سواء استند إلى مادة علمية جمعت بطريقة علمية منظمة كجزء من بحث علمي متكامل أم اعتمد على مجرد خبرات الباحث الشخصية.

بطبيعة الحال، إن الخبرات الشخصية للباحث هي مصدر غني للمعلومات عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. ومع ذلك فسرعان ما يتضح للباحث أن المنهج النظري قد يكون منهجا محفوقا بالخطر إذا ما طبق على الخبرة الشخصية وحدها، وذلك لسببين: أولهما، أننا قد نخطئ خطأ جسيما في طريقة تفسيرنا لخبرتنا الشخصية، لأن معظمنا لا يدرك إدراكا واعيا القدر العظيم من التباين الموجود في الكلام الذي نسمعه أو نستجيب له في حياتنا اليومية، وثانئهما، أن الخبرات الشخصية منطلق محدود جدا بحيث لا يمكن التعميم من خلاله على اللغة في المجتمع.<sup>37</sup>

- خاتمة:

خلاصة القول هي أن اللجوء إلى علم الاجتماع اللغوي في حقل الدراسات الأمازيغية وخاصة في الجانب اللغوي منها أصبح اليوم أمرا حتميا لا مفر منه، بحيث لا يعد يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل ما حققه هذا العلم الحديث في المجتمعات الغربية من إنجازات خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الستين سنة من عمره، وذلك في مجالات تطبيقية بحتة كانت اللسانيات "التقليدية" غير مهتمة أو لنقل عاجزة فيما عن تقديم حلول لمشاكل لغوية، يمكن أن تتفاقم لتتحول إلى مشاكل اجتماعية وسياسية وثقافية إذا لم تحظ بالاهتمام الكافي خاصة إذا تم استغلالها من أطراف تهدف إلى زرع

الفتنة بين أفراد الوطن الواحد. مما يؤثر سلبا على استقرار المجتمع ويعمق عوامل النزاع بين أفراد وفئاته، بل قد يتحول إلى استحالة للعيش المشترك.

الهوامش:

- <sup>1</sup> هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988، ط 1، صص 17-18.
- <sup>2</sup> نازلي معوض أحمد، التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، سلسلة الثقافة القومية (6)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ط 1، ص 9.
- <sup>3</sup> صالح بلعيد، اللغة الأم والواقع اللغوي في الجزائر، مجلة اللغة الأم، دار هومة، الجزائر، 2004، ص 3.
- <sup>4</sup> هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ص 17.
- <sup>5</sup> علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، 1983، الطبعة الرابعة، ص 13.
- <sup>6</sup> هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ص 9.
- <sup>7</sup> علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص 5.
- <sup>8</sup> المرجع السابق، ص 6.
- <sup>9</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- <sup>10</sup> برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، تر: ستقادي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 137.
- <sup>11</sup> صالح بلعيد، اللغة الأم والواقع اللغوي في الجزائر، ص 9.
- <sup>12</sup> المرجع السابق، ص 11.
- <sup>13</sup> Kamal Nait-Zerrad, Grammaire du berbère contemporain (Kabyle) ,1-Morphologie, ENAG /Editions, Alger, 1995, p 17.
- <sup>14</sup> عبد السلام خليفي، معيرة اللغة الأمازيغية في ضوء بعض التجارب العالمية، مجلة أسيناك، العدد الثالث، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2009، ص 27.
- <sup>15</sup> صالح بلعيد، هويتنا اللغوية: الأمازيغية العربية صراع أم تكامل Revue Campus, Université Mouloud Mammeri de Tizi-Ouzou, Numéro 3, septembre 2006, ص 49.
- <sup>16</sup> Jacques Lanfry, Les berbères, leur langue, leur culture, un renouveau contemporain, Etudes et documents berbères N° 1, La boîte à documents, Paris, 1986, p 48.
- <sup>17</sup> Salem Zenia, Les berbères: Les défis de l'amazighité aujourd'hui, Pourquoi écrire en tamazight aujourd'hui ?Éditions PUBLISUD, IEMed, Condé-sur-Noireau, France, 2010, P152.
- <sup>18</sup> لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي، تر: محمد يحياتن، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2006، ص 9.
- <sup>19</sup> المرجع السابق، ص ص 12-13.
- <sup>20</sup> جرهارد هلبش، تطور علم اللغة منذ 1970، تر: سعيد حسين بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2007، ص 355.

- <sup>21</sup> سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، تر: حبيب الله منصوري، دار القصة للنشر، 2003، ص 164.
- <sup>22</sup> برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ص ص 131-132.
- <sup>23</sup> جيمس ميلروي وليسلي ميلروي، الأنواع اللغوية والتنوع، دليل السوسيولسانيات، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهيي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ط1، ص ص 105-106.
- <sup>24</sup> سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ص 164.
- <sup>25</sup> لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ط1، ص 77.
- <sup>26</sup> برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ص 131.
- <sup>27</sup> Chaker Salem, manuel de linguistique berbère, Syntaxe et diachronie, Tome II, ENAG- Editions, Alger, 1996, P 84.
- <sup>28</sup> ماريو باي، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ط 8، ص 40.
- <sup>29</sup> ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية تطبيقية، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ط1، ص 9.
- <sup>30</sup> برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ص 21.
- <sup>31</sup> كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي (مدخل)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ط 3، ص 41.
- <sup>32</sup> رتشارد هدسون، علم اللغة الاجتماعي، تر: محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، 1990، ط 2، ص 12.
- <sup>33</sup> هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ص 50.
- <sup>34</sup> المرجع السابق، ص 50.
- <sup>35</sup> سالم شاكر، الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، ص 160.
- <sup>36</sup> المرجع السابق، ص 165.
- <sup>37</sup> رتشارد هدسون، علم اللغة الاجتماعي، تر: محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، 1990، ط 2، ص 13.